مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

- من بيداغوجيا الكفايات إلى بيداغوجيا الإدماج
- بيداغوجيا النجاح: قراءة في المنطلقات والأهداف
- اللغة والأدب: أية علاقة؟
- المراهقة والتحولات الأسرية في الوسط القروي
- القراءة المنهجية للنص النظري: إشكالات وتساؤلات
- فشل الإصلاحات التعليمية بالمغرب: الأسباب والحلول

العدد الواحد والأربعون- سبتمبر 2009

«بيداغوجيا النجاح: قراءة في المنطلقات والأهداف»

• محمد بوصحابي

تقديم

يعج الحقل التربوي في حركيته المتنامية بعدد وافر من النظريات التربوية والاستراتيجيات الديداكتيكية التي تتغيا تطوير الفعل التربوي والارتقاء به ليصبح أكثر نجاعة ومردودية وليستجيب لتطلعات جميع الفاعلين التربويين.

ونشدانا لهذا المسعى النبيل، ظهرت رزنامة من البيداغوجيات المختلفة كبيداغوجيا الأهداف والبيداغوجيا الفارقية وبيداغوجيا المشروع، وبيداغوجيا الكفايات وبيداغوجيا التحكم. هذه الأخيرة التي يعتبرها البعض حلا سحريا لمشكل الفشل الدراسي، في حين يعتبرها البعض الآخر رهانا مستحيل التحقق، لأن لها تورطات عديدة تتجاوز الإطار الدراسي لتعانق أبعادا أخرى: اقتصادية واجتماعية. فما المقصود بهذه البيداغوجيا؟ وما علاقتها بالنجاح الدراسي ؟ وما هي نماذجها النظرية واستراتيجياتها الديداكتيكية ؟ وما هي مظاهرها الإيجابية والسلبية؟ وما هي البيداغوجيات الأخرى التي تتقاطع معها ؟ وهل يمكن اعتبارها وسيلة ناجعة لتحقيق النجاح الدراسي؟ هذه الأسئلة وغيرها ستشكل محور هذه الدراسة التي تروم سبر أغوار بيداغوجيا التحكم التي تراهن على تعميم النجاح الدراسي، وذلك من خلال كتاب «بيداغوجيا النجاح» لمؤلفه سيزار بيرزا، الباحث الروماني الذي يشغل منصب رئيس مختبر بمعهد الأبحاث البيداغوجية ببوخاريست (رومانيا)[1].

1 - تعريف بيداغوجيا التحكم

هي بيداغوجيا تضع هدفا لها التحكم الكلي في الأهداف المسطرة بحيث يمكن لأغلب التلاميذ تحقيق الحد الأدنى من الإنجازات المحددة سلفا. ويذهب دعاة البيداغوجيا إلى أن الفشل الدراسي غير مبرر بما فيه الكفاية، ومن ثم يراهنون على الإمكانيات التربوية غير المحدودة واللانهائية التي تتيحها بيداغوجيا التحكم، ذلك أن عدم تحقق النجاح المدرسي المستمر يمكن تفسيره –في نظرهم– بعدم نجاعة الطرق التربوية وليس بعدم قدرة التلاميذ على الإنجاز، وأنه كلما وفرنا للمتعلمين ظروف التعلم المناسبة، فإن التحكم في الكفايات سيكون عاما.

وقد وضع «بلوم» سنة 1968 أسس هذه البيداغوجيا التي تم أغناؤها من قبل باحثين آخرين أمثال «بلوك» و«بورين» و«دولانشير».

وقد أضحى الاهتمام كبيرا ببيداغوجيا التحكم ،لأنها تستبعد الاختيار بين التلاميذ عبر الترتيب والانتقاء كتطبيقين بيداغوجيين وتعيد الاعتبار بشكل مطلق لجوهر التعلم عبر تعميم النجاح الدراسي. ويظهر جليا أن مقصدية سيزاربيرزا من خلال كتابه «بيداغوجيا النجاح» تتجلى في ممارسة التحليل النقدي لبيداغوجيا التحكم من أجل ضبط الخطوات الرئيسة لمسارات تطورها، و إبراز تطبيقاتها الممكنة في السياق المدرسي.

يرى الباحث في مقدمة كتابه أنه إلى عهد قريب، كان النشاط المدرسي محكوما بهاجس الاختيار «الانتقاء»، وكان المدرسون مقتنعون بأن عملهم موجه نحو أقلية مختارة بواسطة مصفات» حيث كانوا منشغلين بترتب التلاميذ ضمن سلم تراتبي اعتمادا على النقط المدرسية (العددية) الأمر الذي يؤدي إلى إقصاء الضعاف وغير المتفوقين. ولعل هذا الانتقاد يجد مسوغه في وجود فروق فردية بين المتعلمين يصعب تجاهلها. لذلك يجب على المدرس احترام الضوابط الآتية:

- صوغ تعريف دقيق للتحكم من خلال ربطه بأهداف محددة.
- تحليل الأهداف البيداغوجية ضمن سيرورة التعلم.
- تخصيص وقت إضافي كاف لتصحيح الأخطاء، وتدارك المراحل التي لم يتم بلوغها.
- تقويم النتائج وليس التلاميذ ويعني ذلك أن التقويم يجب أن ينصب حول مدى تحقيق التعلمات من منظور الأهداف البيداغوجية، وليس من خلال مقارنة النتائج داخل المجموعة الصفية

2- النماذج النظرية لبيد اغوجيا التحكم

أ- النموذج الزمني لكارول و بلوم

ـ أورد سيزاربيرزا (cesarbirzea) هذا النموذج باعتباره مرجعية تربوية تستند إليها بيداغوجيا التحكم، ويرى دعاة هذا النموذج، أنه في الممارسة المدرسية اليومية، تماثل الكفاية مستوى التحكم الذي يمكن لأي تلميذ أن يبلغه من خلال عمل معطى، وكلما كان التلميذ متفوقا، كان مستوى تحكمه أكبر.

إن استعداد المتعلم يعود إلى حجم الزمن الضروري المخصص لإنجاز الأعمال المدرسية، وليس إلى مستوى التحكم لدى التلاميذ، لذلك إذا توفر كل تلميذ على الزمن الضروري للانجاز فإن كل التلاميذ سيصبحون قادرين على الوصول إلى مستوى من التحكم المطلوب، والعكس صحيح. ومن ثم يقاس مستوى التحكم بمؤشر العلاقة بين الزمن الفعلي المطلوب والزمن الضروري للانجاز، إذ يصبح التعلم تطورا من اللاتحكم إلى التحكم عبر المرور بسلسلة مراحل وسائطية.

أما بلوم، فقد صاغ أفكاره في نموذج زمني موحد قادر على ضمان ما يسميه « نظام تربوي بدون أخطاء» ويحتوي هذا النظام على ثلاث درجات.

ـ **أولا**: في بداية كل مرحلة من مراحل التعلم، يجب على المدرس أن يلاحظ الفروق الفردية أثناء اكتساب كل عمل دراسي ثم معالجتها من خلال وضع تغذية راجعة مناسبة

ـ **ثانيا**: التعلم هو مجموعة من المحفزات والتجارب الموزعة بشكل غير متساوبين التلاميذ مما يستدعي تنويع زمن التعلم.

ـ **ثالثا**: نتائج التعلم ثابتة ومتجانسة، بمعنى أن التلاميذ يجب أن يحققوا على الأقل مستوى أدنى من الانجاز يكون بمثابة عتبة معدة سلفا من خلال اتفاق وتعاقد بين المدرس وتلاميذه تنهض بدور المقياس أي مقياس التحكم، وعلى أساسها يتم تنظيم التعليم والتقويم التكويني.

ومن أجل تقليص حدة الفروق الفردية وضمان هامش زمني موسع يوفر كل الحظوظ للمتمدرسين، تم اقترح بيداغوجيا تصحيحية كنموذج نظري استلهمته بيداغوجيا التحكم.

ب- البيداغوجيا التصحيحية لبونبوار (bonboir)

البيداغوجيا التصحيحية هي التدخل البيداغوجي الموجه والمبرر في حالة حدوث تباين دال كمي ونوعي بين ما هو محصل عليه في الواقع من خلال خطوة بيداغوجية أولية وبين ما هو منتظر كنتائج لهذه الخطوة. وتهدف هذه البيداغوجيا محو آثار التباعدات السلبية بين النتائج المحققة والنتائج المفترضة، ثم تعديلها بواسطة

علاج تصحيحي من أجل ضمان مستوى التحكم المنتظر بالنسبة لجميع التلاميذ، والمسطر من خلال الأهداف البيداغوجية.

والملاحظ أن البيداغوجيا التصحيحية لبونبوار لم تحول إلى استراتيجية ديداكتيكية لقياس الارتفاع النسبي، الملحوظ في مستوى التلاميذ، لذلك اعتبرت نموذجا نظريا فقط نظرا لقيمتها النسبية في علاقتها بالنجاح الدراسي، إذ نادرا ما تطابق النتائج المحققة النتائج المنتظرة وهذا يقتضي تقديم علاج تصحيحي في الحالات التي تتجاوز فيها التباعدات حدود التسامح.

3- الاستراتيجيات الديداكتيكية لبيداغوجيا التحكم

ترتبط هذه الاستراتيجيات بالجانب التطبيقي لبيداغوجيا التحكم، إذ تسعى إلى تحقيق الأهداف الآتية :

– التعريف المحدد للتحكم في شكل أعمال يجب إنجازها

– التقويم المستمر لإنجازات التلاميذ بعد كل وحدة دراسية أو مجزوءة

– التصحيح الذاتي للأخطاء بهدف ضمان الحد الأدنى من التحكم بالنسبة لكل تلميذ. وتتوزع هذه الاستراتيجيات الديداكتيكية إلى ثلاث :

1. الإستراتيجية الفردية : النظام الفردي لكيلر وشيرمان

2. الإستراتيجية الجماعية : من أجل التحكم لبلوك وأندرسون.

3. الإستراتيجية المختلطة : التكوين المبني على الكفايات لطورشين.

ولعل ما يوحد هذه الاستراتيجيات الثلاث هو اتفاقها حول مبدأ التحكم في إنجاز التلاميذ ضمانا لتعميم النجاح الدراسي، لكن هذا لا يمنع اختلافها في بعض الأسس والمنطلقات.

تعتمد الاستراتيجيات الفردية أو النظام الفردي لكيلر وشيرمان على مجموعة من العناصر :

– تطور الإيقاع الفردي لكل تلميذ.

– تحكم التلميذ الإجباري في الأهداف في كل وحدة/مجزوءة

– إنجاز التلميذ لبعض الأنشطة – كشكل من أشكال الدعم – بعد أن يبرهن على استيعابه للمجزوءة.

– تعزيز التواصل الكتابي للتلميذ.

– غياب الجزاء أو العقوبة بالنسبة للأخطاء.

وتنهض الاستراتيجيات الفردية على مجموعة من الدعامات الديداكتيكية (كتب مدرسية، جذاذات، نصوص مختارة، دلائل تربوية نصوص تقويمية، بطائق التصحيح...) التي تسمح للمدرس برصد مستوى التحكم لدى كل تلميذ. إلا أن الإكراه الذي يواجه هذه الإستراتيجية يتمثل في الزمن،إذ يصعب توفير الزمن الكافي لتتبع مستوى كل تلميذ، فضلا عن كونها تتجاهل الفروق الفردية بين التلاميذ.

وبخلاف الاستراتيجيات الفردية، تعتمد الإستراتيجية الجماعية على مبدأ التحكم لكن من خلال خلق مجموعات صفية متجانسة. وقد حاول بلوك وأندرسون صياغة هذه الإستراتيجية من خلال دينامية الجماعة، إذ يصبح التحكم في الانجاز مطلبا جماعيا. أما الاستراتيجية المختلطة، فتعتمد المقاربة بالكفايات، وقد اختزلها طورشين في ست عمليات.

1. تحديد الأهداف: الأهداف باعتبارها مؤشرات الكفاية.
2. التقويم البدئي أو الأولي للكفاية عند كل تلميذ
3. التعليم هو مجموع الوسائل والوضعيات التعلمية التي تقود إلى ردم الهوة بين المنجز والأهداف النهائية.
4. التقويم التشخيصي: يستعمله طورشين كمرادف للتقويم التكويني، إذ يتعلق الأمر بمراقبة دائمة لتقدم مستوى كل تلميذ، وتحديد الأغلاط المتكررة، ويرى طورشين أن التقويم التكويني يفرض على المدرس إجابتين:

- نعم: تعني التطابق بين النتائج والانتظارات مما يسمح بإغناء البرنامج الدراسي ومتابعته.
- لا: تدل على التباعد السلبي بين الأهداف والنتائج، وفي هذه الحالة يتطلب الأمر إجراء تعديلات على البرنامج الدراسي.

5. برنامج التعليمات: تكمن المساهمة المهمة لطورشين في ضرورة تكثيف العلاج مع الوضعيات التي نصادفها، ويقترح من أجل ذلك ثلاثة أنواع من التعليمات:

أ_ تكرار المحتويات غير المتحكم فيها.

ب_ إحكام المحتويات لمعرفة مدى تكيف الأهداف مع ما هو مطلوب سلفا.

ج_إغناء المحتويات ومتابعة الدروس بالنسبة للتلاميذ الذين تمكنوا من التحكم في الانجازات المتداخلة للمجزوءة.

6. تحقيق برنامج التعليمات يقتضي ابتكارين اثنين:

*ـ الاستعمال الحر للتعليم بالمجموعات والعمل الفردي في علاقتهما بالأهداف وحاجيات التلاميذ

*ـ التوجيه الدائم للتعليم من طرف نظام من الإرشادات والتعليمات، التي اعتبرت مساهمة مُميزة لإستراتيجية طورشين.

بعد عرض سيزار بيرزا للنماذج النظرية والاستراتيجيات الديداكتيكية لبيداغوجيا التحكم، ينتقل إلى تحليل النتائج المترتبة عن تطبيق هذه البيداغوجيا في السياق المدرسي ليخلص في الأخير إلى تحديد بعض المظاهر الايجابية والسلبية التي تطبعها.

1 ـ المظاهر الايجابية تتمظهر من خلال مجموعة من المؤشرات نذكر منها،

ـ تعميم النجاح الدراسي واستمرارية النتائج أو المكتسبات الدراسية واستثمارها لمدة طويلة.

ـ تعزيز الثقة بالنفس لدى التلاميذ وإذكاء روح التعاون فيما بينهم، وتحفيزهم على الاهتمام بالدراسة.

ـ تعديل دور المدرس(التنظيم والتوجيه والتصحيح والقيادة).

تغير وظائف المدرسة (إظهار الانتاجات الذاتية ـ تقليص الانتقاء ـ تحدي الفروق الفردية ـ قيادة التلاميذ جميعا نحو بلوغ الأهداف المتوخاة مما يعني تعميم التحكم).

ـ اعتماد مقياس القدرة على اكتساب التعلمات بدل المقياس القائم على التنقيط والترتيب.

ـ تساوي النتائج مع التعلمات الضامنة للحد الأدنى من الانجازات المشتركة بالنسبة للجميع

ـ إقصاء المنافسة البين فردية والانتقاء الدراسي.

ـ التقليص من أهمية الديبلومات وبعض المصادقات والإشهادات الشكلية.

ـ بيداغوجيا التحكم هي بمثابة تدخل تصحيحي لمواجهة الهدر البيداغوجي داخل الحقل التعليمي.

ب ـ المظاهر السلبية: تتجلى في المؤشرات الآتية :

ـ تطرح بيداغوجيا التحكم مشكلة أخلاقية تختزل في السؤالين الآتيين:

ـ إلى أي حد يمكن للمدرسين حرمان بعض التلاميذ من الحظوة مقارنة مع باقي التلاميذ؟ وهل يمكن للتربية أن تتكيف حصرا مع إمكانيات التلميذ المتوسط ومستواه المحدد عبر ضوابط التحكم.

ـ معايير النجاح محددة في شكل عناصر للإجابة أو إنجازات فضفاضة.

ـ تركيز بيداغوجيا التحكم على الانجازات الفورية في نهاية كل درس أو مرحلة بينية.

- إنجازات بيداغوجيا التحكم قصيرة المدى.
- تأثير الاستعدادت والوضعيات غير المتساوية للوسط يكون أقوى من تأثير المكتسبات المدرسية.
- ضعف المردودية الخارجية لهذه البيداغوجيا من الزاوية الاقتصادية لأن المنظومة المهنية ليست محددة فقط بواسطة النتائج الدراسية، كما أن الإصلاح التربوي لا يقود بالضرورة إلى إصلاح اجتماعي واقتصادي، فكل بيداغوجية جديدة تراهن فقط على نجاعة قصيرة المدى للميثاق التربوي، لا على تصحيح التفاوتات البنيوية للمجتمع.

4 -طبيعة التقويم الملائم لبيد اغوجيا التحكم

يشيرسيزار بيرزا إلى نظام التقويم الذي تعتمده بيداغوجيا التحكم بهدف قياس مستوى التحكم لدى التلاميذ ومراقبته باستمرار. ويندرج هذا النظام ضمن مسلسل تقويمي يتحدد من خلال ثلاثة عناصر:

1. القياس: يتم من خلال بطاقة معلومات تتضمن الوسائل المناسبة للتقويم.
2. التطابق: لمعرفة درجة التطابق بين الأهداف والنتائج.
3. حكم القيمة: تقدير جماعي للانجاز على قاعدة المعلومات المحصل عليها

ويستنتج الباحث الروماني أن بيداغوجيا التحكم توظف التقويم التكويني بكثافة، إذ يصل حجم حضوره إلى 75% مقابل 25% للتقويم الإجمالي.

ولابراز مدى نجاعة التقويم التكويني ضمن بيداغوجيا التحكم، يقارن سيزار بين خصائص كل من التقويم التكويني والتقويم الإجمالي.

التقويم التكويني	التقويم الإجمالي
ـ يحدث أثناء التعلم ـ يتمحور حول مراحل التعلم ـ مستمر ـ مندرج في سيرورة التعلم يتابع مسار التلاميذ ـ يحدد الأخطاء ـ مرجعي ـ يقترح وسائل التصحيح ـ تغذية راجعة.	مؤسس على حكم القيمة ـ أثر فارقي ـ يضع النقط ـ يرتب التلاميذ ـ نهائي ـ ينمحور حول النتائج ـ انتقائي ـ معياري

ويمكن رصد بعض الخصائص المميزة لسيرورة التقويم من حلال الجدول الآتي[2].

الوظائف	نتائج التقويم	موضوع التقويم	توقيت التقويم
وظيفة التوجه	توجهات، مع ما يجب إتباعه	المؤهلات والمخاطر	قبل بداية التعلم
وظيفة التعديل	تشخيص الأخطاء وخطة العلاج	الأخطاء الشائعة	أثناء التعلم
وظيفة المصادقة	الدليل ـ الحجة على التمكن	النجاحات	نهاية التعلم

ويراهن التقويم التكويني باعتباره أس بيداغوجيا التحكم على تعزيز وظائف التعلم ومن بينها «توجه التعلم، تصويبه، الإشهاد أو المصادقة عليه، تعزيز الثقة بالنفس، تنمية الاستقلالية، إدماج المكتسبات، إخبار مختلف الفاعلين المعنيين[3].

على سبيل الختم، تساوي الحظوظ أم تساوي النتائج؟

انطلق سيزار بيرزا من سؤال جوهري صاغه كاغدنر على الشكل الآتي: هل يمكن أن نكون متساوين ومتفوقين في الوقت نفسه؟ لقد أفرز هذا التساؤل تباينا بين توجهين اثنين:

*ـ توجه يرغب في توفير تكوين سهل الولوج قادر على تعميم الحق الطبيعي في التربية، وهذا هو المبدأ الإنساني للمساواة.

*ـ توجه يدعو إلى ضرورة تنظيم تعليم على المقاس من أجل تثمين قدرات كل تلميذ في حدهاالأقصى. وبغض النظر عن هذا التباين، فإن مهمة التربية ـ حسب كاغدنر ـ هي» اصطياد المواهب» حيث حلت روح التنافس محل المساواة، هذه الأخيرة التي أضحت مجرد شعار يؤثث المبادئ الموجهة للسياسة التربوية، لكن رغم هذا الإكراه، تحاول بيداغوجيا التحكم الانطلاق من اللاتساوي البدئي بين التلاميذ تحت إطار الوضعيات وظروف الوسط والمكتسبات لتصل في الأخير إلى أن تكون النتائج النهائية متجانسة في شكل مستوى أدنى من التحكم. ولتحقيق هذا الرهان تستدعي بيداغوجيا التحكم بيداغوجيات أخرى كبيداغوجيا الدعم والبيداغوجية التنويعية وبيداغوجيا النجاعة العامة.

ويخلص الباحث من خلال هذا الحوار حول المساواة البيداغوجية إلى نتيجتين يمكن أن تساهما في تحديد المعنى الحقيقي للمساواة المبشر بها من قبل بيداغوجيا التحكم :

ـ النتيجة الأولى: يتعلق الامر بمساواة ظاهرة، لأن تأثير الاستعدادات والفروق الفردية لم يتم إقصاؤهما.

ـ النتيجة الثانية: من الواضح أن الأبحاث التي أقيمت حول نتائج بيداغوجيا التحكم قد لاحظت تحقيق معيار النجاح من طرف 70% إلى 90% من التلاميذ مما يدل عمليا على تعميم التحكم. لكن هذه النتيجة توضح الاهتمام بالتلاميذ الذين حققوا هذاالسقف من التعلم دون الاهتمام بالتلاميذ الآخرين الذين كانوا قادرين على التعلم بسرعة أو بسرعة أكبر. إضافة إلى ذلك، فإن تساوي الانجازات على المدى القصير مناسباتي وظرفي. و يصعب تحويله إلى وضعيات أخرى نظرا لتباين الاستعدادات الشخصية وظروف الوسط الاجتماعي، بمعنى آخر، أن التجانس المؤقت الذي حققته بيداغوجيا التحكم قد أقصي بواسطة اللامساواة الاجتماعية والتفافية والنفسية وفي هذا السياق يقول بلوم: من نتائج هذه النظرية أن هدف التربية لم يعد تساوي الحظوظ، لكن تساوي نتائج التعلم[4].

ـ نخلص إلى القول بعد مقاربتنا لبيداغوجيا النجاح من منظور سيزار بيرزا أنها أفرزت ردود فعل متباينة، فهناك من يعتبرها حلا سحريا لتصحيح كل الاختلالات البيداغوجية، في حين يرى البعض الآخر ـ ومن ضمنهم الباحث ـ أنه في التربية لاتوجد حلول سحرية، بل أبحاث مستمرة من أجل تطوير العملية التعليمية التعلمية وعقلنتها.

وبمناسبة الحديث عن بيداغوجيا النجاح، نشير في الأخير إلى أن المشرع التربوي المغربي ينشد أيضا تعميم النجاح المدرسي، ودليلنا في ذلك ما ورد على لسان محمد الساسي مدير « المركز الوطني للامتحانات » « نسعى لتعميم النجاح المدرسي، لا نريد من الامتحان أن يكون آلية للانتقاء، بل مناسبة تمكن المترشح من أن يكشف تحكمه في ما هو مطلوب منه للحصول على شهادة وطنية، الرهان الآن هو كيف يمكننا أن نمكن أكبر عدد من التلاميذ من الحصول على الباكلوريا»[5].

الهوامش:

* ملحوظة: اعتمدنا في هذه الدراسة على كتاب:

* Cesar birzea « la pédagogie du succès », presse universitaire de France, 1er édition, Mars 1982, Paris.

1 ـ سيزاربيرزا « بدغوجيا النجاح ».

2 ـ « الحياة المدرسية» العدد ـ2006 7 ـ ص 36.

3 ـ فليب بيرنو، كرافييه روجيرز، بيرنار راي «بيداغوجيا الكفايات» إعداد وتعريب محمد حمود. نشر مجموعة مدارس الملاك الأزرق، الجديدة، ط.2004، 1 ص 110 ـ 109 (بتصرف).

4 ـ نقلا عن سيزار بيرزا « بيداغوجيا النجاح » مرجع سابق».

5 ـ حوار مع محمد الساسي « جريدة العلم» العدد 26 -20740 ماي 2007.